مهدي كلجان*

رحلات ناصر الدين شاه القاجاري إلى بلاد الإفرنج

دراسة مقارنة

(الصفحات ١٥٧- ١٨٢)

ملخّص

ثلاث رحلات قام بها ناصر الدين شاه القاجاري إلى أوربا كان لها تأثيرها السلبي والإيجابي على التوجه الثقافي في إيران. والرحلات الثلاث دوّن ذكرياتها ناصر الدين بنفسه تاركًا وثائق ذات دلالات هامة على طبيعة الحكم والحاكم في إيران، وعلى انطباعاته تجاه الغرب، وعلى الانهيارات النفسية التي أصيب بها هذا الحاكم لبلاد المسلمين، مما دفعته لأن يبذل الأموال الطائلة من أجل التقرب من الغرب ولأن يقدّم الامتيازات تلو الامتيازات للأجانب. الجانب الإيجابي في هذه الزيارات حركة الشعب الإيراني بقيادة علمائه ضدّ تلك الامتيازات التي منحها الشاه للغربيين، وخاصة ضد إعطاء امتياز احتكار التنباك الإيراني للبريطانيين، مما وفّر الأجواء ليقظة الشعب الإيراني والحركة الدستورية. من المؤسف أن هذه الرحلة تمت في ظروف ضعف العالم الإسلامي عامة وإيران بشكل خاص، وقوة الغرب وتقدّمه العلمي في جميع المجالات، ولذلك لم تكن ثمة ندّية بين المسؤولين الإيرانيين والأوربيين، بل كان هناك شعور عند الأوربيين بالاستعلاء وشعور لدى الوفد الإيراني بالانبهار والحرج.

---

* - أستاذ في جامعة آزاد الإسلامية .

تمهيد

من الأحداث الهامة التي شهدتها إيران في عصرها الحديث حكم السلطان ناصر الدين شاه في العصر القاجاري ورحلاته إلى بلاد الإفرنج، التي كانت في السنوات ١٢٩٠ هـ(١٨٧٣ م) و ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨م) و١٣٠٦ هـ (١٨٨٩ م) على التوالي. وتستدعي هذه الرحلات التأمل والدراسة من عدة جوانب:

أولاً – أنها المرة الأولى في تاريخ إيران يقوم فيها شاه إيراني بزيارة ودّية إلى خارج بلاده.

ثانيًا- إن دراسة مجموعة العوامل التي كانت تقف وراء هذه الرحلات، تساعد كثيرًا في التعرف على طبيعة الأحداث والتوجهات السياسية الجديدة سواء على صعيد السلطة الحاكمة أو بالنسبة لحياة الشاه الخاصة.

ثالثًا- الوقوف على نتائج هذه الرحلات وما ترك بعضها من تأثيرات عميقة على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في إيران.. وعلى الرغم من المبالغ الطائلة التي أُنفقت على هذه الرحلات، فإنها عجزت عن تحقيق الأهداف التي كان يتطلع إليها منظموها تمامًا. وإن ما حدث هو تقليد مظاهر تقدم الغربيين بصورة ظاهرية وسطحية، ومنح الامتيازات وتفاقم الاستقراض ونفوذ الأجانب في إيران.

مفردات البحث: الرحلة، السلطان ناصر الدين شاه، الإفرنج، الإصلاحات، الامتيازات.

المقدمة

من الممكن أن نطلق على ناصر الدين شاه بالملك السائح، ذلك أن رغبته في تدوين ونشر المذكرات أدّت إلى أن يترك وراءه عشرة أجزاء تقريبًا في أدب الرحلات.و كانت رحلاته إلى بلاد الإفرنج بمثابة توجّه جديد، إذ يعتبر أول ملك إيراني يقوم بذلك .

وقد سبق للسلطان العثماني أن قام بزيارة بلاد الإفرنج، مما مهد الطريق له.

وجاءت رحلته الأولى إلى خارج البلاد عندما كان وليًا للعهد، إذ قام بزيارة روسيا القيصرية. و بعد ذلك ولدى تربعه على العرش توجه إلى العراق لزيارة العتبات المقدسة، ثم رحلاته إلى بلاد الإفرنج. ويومها كان له من العمر ثلاثة وأربعون عامًا وكان قد قضى ربع قرن منها في الحكم.

ومن بعده كان نجله مظفر الدين شاه، الذي اقتفى أثر والده، حيث زار بلاد الإفرنج ثلاث مرات في الأعوام ١٩٠٠م(١٣١٧هـ)، و١٩٠٢م (١٣١٩هـ)،و ١٩٠٥م (١٣٢٣هـ)، متذرعًا بالعلاج في المياه المعدنية الحارة. وقد ترك كتابًا في أدب الرحلات.

وإثر عزل محمدعلي شاه القاجاري، وبلوغ أحمد شاه السن القانونية وتسلّمه العرش، قام هو الآخر عام ١٩١٩م(١٣٣٧هـ) برحلة إلى بلاد الإفرنج بعد الحرب العالمية الأولى، استغرقت عشرة أشهر، وعاد إلى إيران على الرغم من عدم رغبته في العودة.

رغم وجود دراسات كثيرة حاولت تسليط الضوء على موضوعات عديدة من حياة السلطان ناصر الدين شاه الخاصة وسياساته المحلية والخارجية، فإنٍ هذه الدراسة تحاول مقارنة رحلات ناصر الدين شاه إلى بلاد الإفرنج والوقوف على وجوه الاشتراك والتباين فيما بينها، إذ تعتبر الرحلات ذات قيمة بحد ذاتها وتحظى بالأهمية باعتبارها وثائق ومستندات اجتماعية وتاريخية.

و بشكل عام يمكن تقسيم تدوين أدب الرحلات في إيران إلى مرحلتين، قديمة وحديثة . غير أن تعرفنا على أدب الرحلات بشكله المعاصر يعود إلى رحلات المستشرقين وسفراء الدول الغربية لإيران، وزيارات المبعوثين الإيرانيين إلى بلاد الإفرنجة سواء في مهام سياسية أو للدراسة.

وأخذ تدوين أدب الرحلات يحظى بالاهتمام في إيران منذ العصر الصفوي. وفي عصرنا الحاضر نُشرت العديد من الأعمال الطريفة والممتعة في مجال أدب الرحلات.

وفي الفترة الأخيرة ازدهر أدب الرحلات والمذكرات، سجّل أصحابها فيها مشاهداتهم خلال رحلات عديدة ونشروها في عدد من المجلات والصحف، ولم تجد الفرصة لطباعتها في كتاب.

وفي هذا الصدد يحظى الخوض في مذكرات الرحلات التاريخية بأهمية بالغة، خاصة إذا ما قام أحد أقوى الملوك القاجاريين بتدونيها..

زيارة ناصر الدين شاه القاجاري الأولى إلى بلاد الإفرنج

طبعت مذكرات الرحلة الأولى إلى بلاد الإفرنج عام ١٢٩١ للهجرة طباعة حجرية بالقطع الرحلي، كما تمت ترجمتها ونشرها خارج إيران أيضًا، وأعيدت طباعتها مرات عديدة، وفي آخر طبعة لها حملت عنوان: **مذكرات السلطان ناصر الدين شاه في رحلته الأولى إلى بلاد الإفرنج...**

وكانت الرحلة الأولى في سنة ١٢٩٠ للهجرة، وللقيام بهذه الرحلة كانت هناك أكثر من حُجة تذرّع بها الشاه، منها : تلبية دعوة فرانسو جوزيف الأول، وتفقد معرض فيينا الدولي، إضافة إلى تشجيع الإصلاحيين الإيرانيين وفي طليعتهم رئيس الوزراء (صدر أعظم) آنذاك، بشأن أهمية التعرف على بلاد الإفرنج وتعزير العلاقات مع دولها، ومشاهدة مظاهر الحضارة الغربية وتقدم الغربيين، ومحاولة استقطاب الرساميل الفرنجية للاستثمار داخل إيران، فضلاً عن حب الملك للسفر وقضاء أوقات ممتعة ولفت الأنظار إليه وإلى مكانته على صعيد الداخل والخارج معًا، ونيل الأوسمة، وما شابه ذلك.

وبوحي من عادته عمد إلى (الاستخارة) قبل البدء بالرحلة، فكانت النتيجة غير مشجعة. ولكن مشير الدولة كتب له بأن هذه الرحلة تمتلك من المزايا ما تفوق رحلة السلطان نادر شاه إلى الهند، مما دفع السلطان ناصر الدين شاه إلى الموافقة عليها.(آدميت،١٩٧٢:٢٥٩) وفي غضون ذلك تم اتخاذ الإجراءات اللازمة للحفاظ على أمن البلاد في غياب الشاه. وفي هذا الصدد يكتب أمين الدولة موضحًا «تم تحديد مراكز

استقرار العسكر لكل نقطة حسب الضرورة . وأبلغ الحكّام بما ينبغي فعله خلال فترة غياب الشاه. وقد صدرت الأوامر بشكل تفصيلي وتم قراءتها من على المنابر، وتم إقناع رجال الدين في طهران والأقاليم بمختلف الوسائل، للتحدث إلى الناس عن محاسن رحلة الملك. وللمحافظة على العاصمة تم تشييد ثكنة عسكرية في ضواحي العاصمة (أمين الدولة، ١٩٧٦:٣٦)

رافق الشاه جمع كبير حتى الحدود، غير أن عدد الذين رافقوه في رحلته كان محدودًا، أما النساء فقد رافقت الملك أنيس الدولة وعدد من النساء اللواتي انتصرن في منافستهن مع الأخريات.

كما رافق الملك في رحلته عدد من رجالات البلاط وفي مقدمتهم قائد الجيش مع عدد من الأمراء والخدم. وقد تم إعادة النساء من موسكو إلى إيران. بسبب التباين الثقافي وبعض المشاكل التي طرأت بسبب الحجاب وأمور أخرى...

و كان قد تم إرسال «ملكم» قبل أربعة أشهر من بدء الرحلة، في مهمة إلى البلاطات الأوروبية للتباحث بشأن استقبال الملك واستضافته.

انطلقت الرحلة من طهران سنة ١٢٩٠ للهجرة، واستغرقت نحو أربعة أسابيع لتصل إلى سواحل أنزلي. ومن هناك اتجهوا إلى روسيا ومن ثم إلى ألمانيا، وفي السابع عشر من ربيع الثاني وصلوا بالباخرة إلى بلجيكا.و من هناك انتقلوا إلى إنكلترا التي مكثوا فيها أسبوعين ونصف الأسبوع. بعدها توجهوا إلى فرنسا، ومن ثم إلى سويسرا حيث مكثوا فيها ثلاثة أيام، بعدها سافروا إلى إيطاليا.

و في الأول من جمادى الثانية توجهوا إلى النمسا. وهناك تفقدوا معرض فيينا الصناعي – التجاري، الذي شاركت فيه إيران. كما توقف الوفد عدة أيام بإيطاليا. بعدها توجهوا إلى الدولة العثمانية حيث مكثوا فيها أسبوعًا. وفي الرابع عشر من شهر رجب عاد الملك والوفد المرافق إلى ميناء أنزلي عن طريق القوقاز وبادكوبه...

جدير بالذكر أن الملك والوفد المرافق أينما ذهبوا حلّوا ضيوفًا وأقيمت لهم مراسم

استقبال وتوديع ملفتة، وتم إسكانهم في أفضل دور الضيافة الحكومية .. وحضروا الحفلات وعروض الأوبرا والسيرك وزاروا المتاحف وأحواض الأسماك وحدائق الحيوانات، وتعرفوا عن كثب على مظاهر المدنية والثقافية للحضارة الغربية .. وكان الملك يطلع على ما يجري في طهران عن طريق البرقيات. ومن أبرز الأحداث التي حصلت في غياب الملك، وفاة والدته (مهدعليا) في طهران.

و في روسيا واجه الملك معارضة الروس لمنح إيران امتياز (رويتر) إلى بريطانيا. وفي بريطانيا شاهد الملك عدم اكتراث أعضاء الحكومة البريطانية بامتياز رويتر إذ تغيبوا عن حضور المأدبة التي أقامها بهذه المناسبة.

وفي هذه الرحلة تم التوقيع على اتفاقيات شراء السلاح من النمسا. كذلك ثمة عقود أخرى تم التوقيع عليها أثناء هذه الرحلة تطرق إليها الشاه في مذكراته.

كانت الرحلة ممتعة للغاية بالنسبة للسلطان ناصر الدين شاه ومن كان برفقته، إذ لم يكن معظمهم قد سافر إلى خارج إيران من قبل. وفي هذه الرحلة تذوق الملك لأول مرة طعم الموز. وقد كتب عن هذه الفاكهة موضحًا: <نوع من الفاكهة المأكولة يشبه شكلها (الكوسه) الصغيرة وهي طازجة، ويصبح لون قشرتها أصفر لدي نضوجها، وهي تشبه البطيخة اللينة في طعمها . ويمكن تناولها باليد وهي ثقيلة بعض الشيء، ويقال لها باللغة الفارسية والهندية موز> (ناصرالدين شاه، ١٠٨:١٩٦٤)

أثناء وجوده في النمسا، طلب ناصر الدين شاه من يوهان اشتراوس، الموسيقار النمساوي الشهير، أن يعدّ نشيدًا بديلاً للنشيد الوطني الإيراني. كما أن البريطانيين كانوا قد دهشوا للعَلَم الذي رفع باعتباره العلم الرسمي الإيراني. ولكن ما أثار حيرة الملك ودهشته هو اختراعات الغربيين . إذ أن الكثير من الأشياء التي رآها الملك في هذه الرحلة لم تكن معروفة في إيران حتى ذلك الوقت، من قبيل: ماكنة قص الحشائش، ومضخة الحفر، والعربة التي تجرها الخيول، والقطار، والنفق، والمصباح الغازي، وآلة إطفاء الحريق، إلى غير ذلك. وما أزعج الملك في هذه الرحلة هو المشكلات التي نتجت

عن مرافقة النساء، وبرودة وحرارة المياه والطقس، وهيجان البحر في ميناء أنزلي لدى عودته.

جدير بالذكر أن الكثيرين انتقدوا هذه الرحلة، منوهين إلى أن الملك يأخذ أموال إيران لإنفاقها عل متعته، والمجيء بأشياء كمالية غير ضرورية (مشايخي،١٣٨٥:ص ٥٩)

يظهر أن تصرفات الملك ومرافقيه، كانت قد أثارت استهزاء الأجانب وسخريتهم . يشير أرتور هاردينغ إلى ذلك بقوله : أبدى ناصر الدين شاه اهتمامًا بطريقة الإعدام المتبعة في بريطانيا . وخلال فترة مكوثه في لندن كان قد أعرب عن رغبته بمشاهدة طريقة إعدام أحد المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام.

وعلى الرغم من عدم وجود مثل هذا الشخص، كان الشاه يود أن يعدم أحد وإن لم يستحق الإعدام حتى يرى طريقة إعدامه، وقد حاول مستضيفوه إقناعه بالانصراف عن ذلك بشق الأنفس!!

أثارت رحلة ناصر الدين شاه ردود فعل متباينة، حيث تناولتها كتابات عديدة داخل إيران وخارجها، وترددت شائعات على ألسن الناس تتندر بها. غير أن للمستوفي رأيًا آخر، إذ يقول : «... إن هذه الرحلة برهنت للأوروبيين جيدًا بأنه لا يمكن الحكم على إيران والإيرانيين من خلال كتاب ألف ليلة، وحاجي بابا، وأساطير محمدرضا بيك سفير السلطان الصفوي، إذ جسد الملك أنموذج الشعب العريق على أحسن وجه، (المستوفي، ١٩٩٢:المجلد الأول، ص ١٢٧)

و خلال هذه الرحلة، وتكريمًا للسلطان ناصر الدين شاه، أطلقوا اسمه على عدد من الأماكن.

ولدى عودة الشاه إلى إيران، كان الحدث الأبرز المعارضة الحادة التي واجهها امتياز «رويتر» من قبل الأمراء ورجال البلاط والنساء والمجتهدين وأفراد الشعب. كما أثار استياء روسيا، وتجاهل بريطانيا، وامتعاض ألمانيا، مما دفع مشير الدولة إلى الاستقالة، حتى أن ناصر الدين شاه لم يصحبه معه إلى طهران، وبادر إلى الغاء الاتفاقية وبقيت

ديون رويتر لدى إيران موضع نقاش لسنوات طويلة . الحاج الملاّ علي كني، الذي كان من المعارضين، رفض لقاء قائد الجيش إلى آخر عمره . كما أتهم الملك بدينه وبالترويج للعادات والتقاليد الإفرنجية. ولأول مرة اهتزت قوة الشاه وسلطانه . ولو كان قدتم تنفيذ اتفاقية رويتر لكان قد انتهى شاه إيران، ولأصبحت إيران مستعمرة بريطانية دون أدنى عناء، وأنه لمن السذاجة أن يتصور أحد أن البريطانيين أرادوا إعمار إيران.(تيموري،١١٨:١٩٥٤)

إن عزل الصدر الأعظم لدى عودة الشاه، كان قد ألقى بظلاله على المحافل الدولية. وفي هذا الصدد يقول جيمز ويلس: «كان من المفروض أن تترك رحلة الشاه الأولى إلى بلاد الإفرنج أثرًا تربويًا، ولكن بمجرد عودته إلى العاصمة، كان الصدر الأعظم موضع عتاب ولوم على مدى عام كامل بسبب تصرفاته غير اللائقة». (بياني،١٩٩٦:٥)

و خلال هذه الرحلة حصل كلود سميث على موافقة ناصر الدين شاه بتعيين حدود سيستان، وكان يهدف من وراء ذلك توفير حاجز مصطنع لضمان أمن مستعمرة الهند.

ومن الخطوات الأخرى التي تم اتخاذها غداة هذه الرحلة، تأسيس صندوق العدالة، وإنشاء سجل التنظيمات، وإحداث وزارات جديدة، والاستعانة بمستشار نمساوي لإصلاح البريد، وضرب العملة، وتأسيس المصانع، وبناء الفنادق بطراز جديد، واستخدام المصابيح الغازية في القصر الملكي، وشق الطرق، وتأسيس حديقة الحيوان، واعتماد تقليد دور العرض الإفرنجية، وإنشاء متحف، واعتماد التقويم...

ومن الواضح أن إنشاء صندوق العدالة لم يكن موفقًا، لأن المسؤولين لم يكونوا يسمحون للناس بتقديم شكاواهم، وفي الوقت نفسه كان الأشرار يضعون فيه أراجيفهم.(ورهرام،٢٤٦:٢٠٠٧)

الشاه الذي شاهد البرلمان في أوروبا، قرر أن يؤسس مجلسًا استشاريًا يفتح أبوابه في أيام خاصة تحت إشراف الوزراء. حتى هذا المجلس لم يكن يسمح له بتناول القضايا الحكومية والسياسية وميزانية البلاط(ولايتي،١٢٨:١٩٩٦)

يقول مليجك عن هذه الرحلة : «لم يتمتع الشاه في هذه الرحلة، فالشاه الذي اعتاد أن يأمر وينهى دائمًا، كان ينبغي له في بلاد الإفرنج اتباع ضوابط ومعايير حازمة لاتنسجم مع سلوكه وتصرفاته.و فضلاً عن ذلك كان ناصر الدين شاه يشعر بالحرج حيال هيبة رؤساء الدول حين يرى التطور الاجتماعي والرخاء الذي ينعم فيه أبناء هذه الدول.(افراسيابي،١٩٩٥:٢٨١)

الرحلة الثانية لناصر الدين شاه القاجاري إلى بلاد الإفرنج

مذكرات الرحلة الثانية لبلاد الإفرنج طبعت طبعة حجرية سنة ١٢٩٦ للهجرة. وأعيدت طباعتها عام ١٩٨٤ م مع مقدمة لإيرج أفشار، دون أي نقص أو إضافة . وفي الفترة الأخيرة بادرت فاطمة قاضيها إلى طباعة المذكرات اليومية للرحلة الثانية لبلاد الإفرنجة عن طريق منظمة الوثائق الوطنية الإيرانية.

كانت الرحلة الثانية في سنة ١٢٩٥ للهجرة (١٨٧٨م). وهذه المرة أيضًا حاول الشاه تبرير رحلته بذرائع عديدة منها: الرغبة في السفر والسياحة، والذكريات الطيبة للرحلة السابقة، والمشاركة في مؤتمر برلين، وتطوير العلاقات مع الدول الغربية، وتعزيز المكانة الدولية لإيران، والمزيد من الإحاطة بالتقدم الغربي، وأن معرضًا تجاريًا وصناعيًا ضخمًا أقيم في باريس شاركت فيه إيران، وقد قرر الشاه أن يتفقد الجناح الإيراني... وما شابه ذلك.

يقول الشاه عن هدفه من هذه الرحلة موضحًا أنه في الرحلة السابقة لم يتسن له التعرف جيدًا على مظاهر الحضارة الغربية نظرًا لكثرة الحفلات والمأدبات التي شارك فيها. وينوي هذه المرة أن يذهب مفكرًا ومتفكرًا وعلى نفقته الخاصة. ويرى أنه من الضروري الأخذ بالرقي والتقدم والتربية والصناعة أينما وجدت، ونظرًا لوجودها في أوروبا، لذا قرر القيام بهذه الرحلة. (قاضيها، ٢٠٠٠:١٩٢). ولهذا كان عدد مرافقيه أقل بكثير مما كان في الرحلة السابقة، وربما لم يتجاوز ١٩شخصًا. وقرر أن لايحل ضيفًا على

أحد. غير أن ماحدث كان العكس تمامًا، إذ تم تأمين نفقات الرحلة عن طريق عدم دفع رواتب الجنود والموظفين، ومن الأموال الواصلة من الأقاليم وميزانية البلاد، إضافة إلى أنهم حلّوا ضيوفًا عند كل مَن وجّه إليهم الدعوة.

وفضلاً عن ذلك بعث السلطان ناصر الدين شاه الميرزا على خان أمين الملك إلى الدول الاوروبية لإعداد مقدمات السفر. كما أوكلت إدارة شؤون البلاد في غياب الشاه إلى كامران ميرزا نائب السلطنة، وفوضت قيادة الجيش وشؤون وزارة الحربية ووزارة الخارجية إلى يحيي خان معتمد الملك.. كما أقيمت ثكنة عسكرية كبيرة في طهران والمدن الأخرى لحفظ الأمن.

تولى السيد إسماعيل البهبهاني مهمة الاستخارة للقيام بهذه الرحلة. وكالعادة توجه الشاه إلى مرقد السيد عبدالعظيم الحسني للزيارة قبل يوم واحد من سفره. وفي الطريق حاول الجنود التابعون لفوج إصفهان الذين لم يقبضوا رواتبهم، تسليم عريضة إلى الشاه. غير أن الحاشية المحيطة بالملك حاولت منعهم، فقام أحد الجنود برميهم بالحجارة، فأصابت عربة الملك. عندها أمر الملك باعتقالهم. وبمجرد عودته إلى القصر، تم إعدامهم بتهمة محاولة اغتيال الشاه وانتمائهم للفرقة البهائية. وقد حاول البعض ثني الملك عن قراره إلا أنهم لم ينجحوا في ذلك. وبعد فوات الأوان تنبه الشاه إلى خطئه، فحاول إرضاء أسرهم.

وفي الوقت نفسه أثار الحادث ردود فعل كثيرة خارج إيران. (ويلز، ١٩٨٩: ٤٠٢). وعبّر ويلهام الأول عن استيائه إزاء موقف الشاه هذا، الا أن ناصر الدين شاه ردّ عليه بالقول: لن تتحقق العدالة من دون قطع الرقاب. (حكيمي، ٢٠٠٠: ٦٤-٨٠ . بزرگ اميد، ١٩٨٤: ٦٤) ... تجربة رحلته السابقة جعلته يتخلّى عن اصطحاب النساء معه هذه المرة ...

في مبنى الكرملين استعاد الشاه ذكريات زيارته الأولى مع أنيس الدولة (إحدى النساء المقربات لديه).

انطلقت الرحلة يوم الخميس نهاية ربيع الأول حيث انقضت خمسة عشر يومًا على عيد النيروز سنة ١٢٩٥ للهجرة. وكانت في السنة الثانية والثلاثين من حكم ناصرالدين شاه... اعتذر البريطانيون عن استضافة الشاه متذرعين بأنهم في حداد بسبب مقتل الجنود الإيرانيين! كما أن السلطان العثماني لم يكن مستعدًا للمشاركة شخصيًا في استقبال ناصرالدين شاه، لذا تم إلغاء برنامج السفر إلى الدولة العثمانية أيضًا. يشار إلى أن مثل هذه المشكلة حدثت في الرحلة الأولى، حيث مكث قائد الجيش عدة ساعات في الباخرة بانتظار موافقة السلطان العثماني على المشاركة في استقبال الشاه في زيارته للدولة العثمانية.

في الثالث من جمادى الأولى وصل السلطان ناصر الدين شاه إلى ضفاف نهر أرس. وفي السابع عشر من الشهر نفسه وصل إلى موسكو. وهناك التقى الميرزا ملكم خان الذي كان قد قدم من لندن.

ثم توجه الشاه بالقطار إلى بطرسبورغ للقاء القيصر الروسي. ولدى توديعه وضع القيصر معطفه على كتف الشاه ورافقه حتى محطة القطار. وحتى أنه صعد إلى داخل العربة، وكان ذلك تعبيرًا عن غاية الاحترام. بعدها توجه الشاه إلى ألمانيا عن طريق العاصمة البولندية وارسو. وأثناء وجود ناصرالدين شاه في برلين، تعرض الامبراطور الألماني إلى محاولة اغتيال أثناء استضافته الشاه في المساء، فسارع ناصرالدين شاه إلى ترك المكان.

لم يشارك الشاه في مؤتمر برلين وقد شارك فيه ملكم مندوبًا عن إيران. وبعد عدة أيام من الإقامة في بادن توجه الشاه إلى فرنسا، حيث المعرض الإيراني الذي أُقيم في باريس على طراز برج عشرت آباد، وقد أشرف على بنائه الأستاذ حسين على الإصفهاني.

وفي الأول من رجب توجّه ناصرالدين شاه إلى النمسا، وقد حضر كبار الشخصيات الفرنسية في توديعه.. وفي الثالث من رجب وصل إلى محطة القطار في سالس بورغ.

مكث الشاه هناك ثمانية أيام ثم انتقل إلى روسيا.

وفي الثامن عشر من رجب وصل إلى القوقاز. ومن هناك توجه إلى ميناء بتروفسكي واستقل الباخرة الملكية (الكسندر سزارويج) متجهًا إلى ميناء أنزلي. وفي الثالث والعشرين وصل إلى أنزلي، وجاء كبار الشخصيات لاستقبال الشاه. كما أنهم كانوا قد وضعوا مظاهر الزينة في طهران احتفاءاً بقدوم الشاه... مكث الشاه ليلتين في أنزلي وأخريين في رشت، ثم توجه إلى طهران...في حين توجه نائب السلطة ومعتمد الملك والوزراء والأعيان بعضهم إلى قزوين وبعضهم إلى كرج لاستقبال الشاه. وكان الشاه قد بدأ بتلاوة القرآن مع بداية الرحلة، وأثناء عودته كان قد وصل إلى سورة يوسف. كما أنه أطلق على هذه الرحلة اسم (رحلة الخميس)، لأنه صادف كل من بداية الحركة والعودة ووصول طهران والتوجه إلى مقر الإقامة في المصيف، يوم الخميس...

و بشكل عام حظي الشاه في هذه الرحلة باستقبال حافل، وأقام في القصور الملكية والفنادق الفاخرة. وتفقد المراكز العسكرية والصناعية والترفيهية في بلاد الإفرنج. وتعرف عن كثب على الألفباء الخاصة بالمكفوفين ... كما أقدم الشاه ومرافقيه على شراء أشياء كثيرة بما في ذلك الستائر والمجوهرات والصولجان والأختام إلى غير ذلك، وفي هذه الرحلة قدّمت إلى الشاه هدايا كثيرة بما في ذلك لوحة زيتية تصوره شخصيًا.

ثمة ملاحظات طريفة كثيرة حفلت بها هذه الرحلة. من ذلك – على سبيل المثال - ذهول الشاه لدي رؤيته الطاحونات الهوائية، وقال: لقد كان دون كيشوت محقًا في لجوئه إلى حرب الطواحين الهوائية. كما شاهد طريقة تربية الأسماك، وأغصان شجرة الياس المتسلقة، ومراكز إدارة الدولة. وقد كتب في مذكراته عن تناول الناس في بلاد الإفرنجة بذور نبات دوار الشمس، مما يشير إلى أن ذلك لم يكن متداولاً في إيران آنذاك. وأثناء العودة مرض فرّخ خان ـ أحد المرافقين ـ وتوفي فأسف عليه الشاه كثيرًا. (قاضيها، ٢٨٧:٢٠٠٠).

وكان ناصر الدين شاه قد شهد خلال هذه الرحلة محاولة اغتيال إمبراطور ألمانيا، مما دفعه –بعد عودته- إلى الحد من استبداده في الظاهر واللجوء إلى بعض الخطوات الإصلاحية. وفي هذا الصدد شكّل حكومة ثلاثية من قائد الجيش ومستوفي الممالك ونجله كامران ميرزا. كما جلب العديد من مظاهر الحضارة الأوروبية الجديدة إلى إيران من قبيل القطار. كما يعد من إنجازات هذه الرحلة المشاركة في مؤتمر برلين ونجاح الميرزا ملكم خان باسترجاع الأراضي الإيرانية التي استولت عليها الدولة العثمانية طوال ٣٣ عامًا، وقد تم إعادتها بدعم من الروس والبريطانيين رغم محاولة الدولة العثمانية التهرب من التزاماتها واختلاق الأعذار.

وغداة الرحلة قام ناصرالدين شاه بجلب مستشارين من النمسا لإصلاح نظام الخدمة العسكرية، وتم استبدال زي الجنود ثلاث مرات. وبعد ذلك جاء ناصرالدين شاه بالقازاق الروس إلى إيران وقام بتشكيل قوة عسكرية. وكان ذلك بمثابة خطأ فاحش ارتكبه الشاه وقائد الجيش، لأنه أدى لأن تصبح هذه القوات الأداة الأجنبية في إيران، وفي نهاية المطاف قامت بقصف مجلس الأعيان بالمدفعية. وكانت تبدو في الظاهر تابعة للحكومة الإيرانية، إلا أنها في الواقع كانت تتلقى الأوامر من الحكومة الروسية. (نصر، ١٩٨٤: ٣٧٩).

واستنادًا لما ينقله الفرنسي اورسل: <إن شاه إيران ليس هذا الذي يقيم في القصر بطهران، وإنما رئيس وزراء روسيا». وهذه العبارة توضح جيدًا نتيجة قرار الشاه. (خاتمي، بدون تاريخ : ٢٥).

الخطوة الأخرى التي تم اتخاذها بعد العودة في هذه الرحلة، تمثلت في تأسيس دائرة الشرطة على يد الكونت(دومونت فورت) الذي كان إيطاليًا يحمل الجنسية النمساوية. وكان يلقب بنظم الملك، وأمير التومان، ووزير شرطة دار الخلافة والحسبية. وقد أرسى نظامًا عرف بـ «قانون الكونت». ومما أقدم عليه الكونت، إعادة تنظيم الصحافة، والقضاء على الفساد، وإنهاء النزاعات. ورغم التصور العام الإيجابي الذي كان سائدًا

عنه وعن أفعاله، إلا أنه كان في الحقيقة عبارة عن ضابط إيطالي فرّ من بلاده. ويقال إنه كان يختلق ملفات القضايا ومن ثم العمل على تسويتها. كذلك تمت الاستعانة بمستشار مالي يتولى متابعة الشؤون المالية في إيران . كما يعد إصدار عدد من الصحف وتأسيس مدرسة، من جملة الأعمال التي رأت النور بعد هذه الرحلة . وقام قائد الجيش بإنشاء وتشغيل مصنع لإنتاج المصابيح الغازية والكهربائية، كان قد ابتاع وسائله ومعداته من بلاد الإفرنج . كذلك كانت هناك ثمة مشاريع في مجال شق الطرق وإحداث دار الضيافة. كما وصلت إيران الطلبات التي تقدمت بها الحكومة خلال الرحلة إلى مصانع الأسلحة في النمسا وفرنسا على أن يتم تسديد ثمنها على دفعات، حيث وصلت البنادق والعتاد عن طريق ميناء أنزلي، وقد تم اختبارها في <قزل قلعة> بحضور الشاه .. كما منح الفرنسيون حق التنقيب والحفريات، وقد أدى ذلك إلى تهريب الكثير من الآثار التاريخية الإيرانية إلى خارج البلاد.

رحلة ناصرالدين شاه القاجاري الثالثة إلى بلاد الإفرنج

طبعت مذكرات الرحلة الثالثة لبلاد الإفرنجة عام ١٣٠٨ للهجرة طبعة حجرية وفي قطع رحلي . وقد قام ناصرالدين شاه بنفسه بتقسيمها إلى ثلاثة أقسام وجعلها في ثلاثة أجزاء. والباحثون الجدد الذين عملوا على هذه المذكرات حرصوا أيضًا على طباعتها في ثلاثة أجزاء وإبقائها على ما هي عليه. كما نشرت ترجمات للمذكرات في خارج إيران أيضًا.

وكعادته حاول الشاه تقديم التبريرات لهذه الرحلة موضحًا بأنها تهدف إلى: تحقيق المزيد من الاتصال بالدول الغربية، والتعرف عن كثب على تطور هذه البلدان وتقدمها، وإرساء علاقات طيبة خاصة مع بريطانيا نظرًا للاهتمام السياسي الذي يوليه الشاه والمستشارون إزاء الدولة البريطانية، إضافة إلى تفقد معرض باريس، وتلبية الدعوات الموجهة للشاه، إلى غير ذلك.

وفي روسيا كان <دالغوركي> غير راض عن منح إيران امتياز حرية الملاحة في نهر الكارون إلى البريطانيين، ولذا لم يسمح للشاه بالمرور عبر الأراضي الروسية إلا بعد جولة من المباحثات أجريت مع الشاه.

وعلي صعيد الداخل الإيراني كان الناس غير راضين عن القيام بهذه الرحلة، وكانوا يرسلون عرائضهم باستمرار إلى الشاه يتحدثون فيها عن مشاكلهم ومعاناتهم .

وفي خارج إيران أيضًا، كان الشعبان البلجيكي والفرنسي مستائين من إنفاق أموال بلدانهم على رحلة هذا الملك . كما أن الملكة فكتوريا في بريطانيا كانت قلقة إزاء توفير نفقات هذه الرحلة .

ومهما يكن، فإن السلطان ناصرالدين شاه كان قد أعد نفسه للقيام بهذه الرحلة .

وتمت خياطة الملابس التي سيرتديها الشاه ومرافقوه خلال هذه الرحلة، ومراسلة سفراء ووزراء الدول المعنية . وقام الملا غلام حسين نامي بالاستخارة لرحلة الشاه، فكانت النتيجة مشجعة. وهكذا فوضت إدارة البلاد إلى نائب السلطنة وقواته، وخرج ناصرالدين شاه متخفيًا حتى عن نسائه قبل موعد الرحلة بعدة أيام، ولم يخبر أحدًا بذلك . بعض النساء كانت قد رافقت الشاه إلى الحدود، منهن فخرالدولة التي كتبت قسمًا من هذه المذكرات ..

لم تكن النساء موجودات في هذه الرحلة . وكانت هناك فتاة شركسية فقط، استؤجرت من إسطنبول وأرسلت إلى الشاه لترافقه في الرحلة. تذكر المصادر أن عدد الذين رافقوا الشاه في هذه الرحلة بلغ أربعين شخصًا تقريبًا. وكان البعض ينسحب من الوفد أثناء الرحلة بحجة الزواج أو التوجه إلى الزيارة أو الدراسة أو العلاج . وهناك من انفصل عن الرحلة في بعض البلدان والتحق بها من جديد في بلدان أخرى. وكان في مقدمة المرافقين للشاه هذه المرة علي أصغر خان أمين السلطان، وكان من المرافقين البارزين الآخرين عزيز السلطان الذي كان موضع اهتمام الشاه وتقديره إلى حد كبير.

كذلك كان اعتماد السلطنة أحد الملازمين لركاب الشاه في هذه الرحلة وقد دوّن مذكراته عن هذه الرحلة .

انطلقت الرحلة يوم السبت الموافق ١٢ شعبان سنة ١٣٠٦ للهجرة (١٨٨٩م) من طهران . وتتحدث الصفحات الأولى من المذكرات عن تفاصيل الرحلة داخل المدن الإيرانية وليس فيها شيء مهم . وفي السادس والعشرين من رمضان توجه الشاه ومرافقوه من روسيا إلى وارسو في بولندا التي كانت جزءاً من روسيا القيصرية حتى ذلك الوقت. ومكثوا هناك أسبوعًا، ثم توجهوا من هناك إلى ألمانيا بالقطار الألماني. لأن عربات القطار كانت قليلة فقد أضيفت إليه أربع عربات أخرى أخذوها من الروس. وبعد ألمانيا انتقل الوفد إلى هولندا الذي كان ملكها مريضًا. وفي السادس والعشرين من شوال توجهوا إلى إحدى المدن البلجيكية المهمة . وهنا ينتهي الجزء الأول من مذكرات الرحلة .

ثم انتقل الشاه ومرافقوه إلى انكلترا. وهناك حظي باستقبال حافل، وأقيمت له مأدبات وحفلات ضخمة، ولم يكن كل ذلك بمعزل عن توجهات السياسة الخارجية البريطانية ومصالح الدولة العظمى. وبهذا النحو أمضوا شهرًا كاملاً في بريطانيا واسكتلندا. ومن هناك توجهوا إلى فرنسا. وفي فرنسا تفقد الوفد المعرض الدولي الذي لم تشارك إيران فيه، الا أن أحد الفرنسيين أقام فيه جناحًا لعرض الصناعات اليدوية الإيرانية .. ومن فرنسا انتقلوا إلى النمسا، ثم عادوا إلى إيران عن طريق ايروان والقوقاز . وأثناء ذلك مرض الشاه وتدهورت صحته بشدة حتى شارف على الموت . وكان الحكيم فوريه هو الذي يتولي معالجته. وكان من المفترض أن يصل الشاه إلى طهران يوم الخامس والعشرين من محرم، إلا أنه وصل يوم الرابع والعشرين بطلب منه.

وفي إيران تم الترحيب بقدوم الشاه، وقدمت إليه هدايا كثيرة حتى لم يستطع الشاه التعرف على أصحابها لكثرتها . وفي العاشر من ربيع الأول سنة ١٣٠٧ للهجرة (٢٦ اكتوبر ١٨٨٩)، أقيم حفل رسمي لمسؤولي البلاد تحدث فيه ناصرالدين شاه معربًا عن

ارتياحه للقيام بهذه الرحلة .

وفي هذه الرحلة حظي الشاه باستقبال وتوديع حافلين، وتم تبادل الأوسمة والنياشين في جميع المناطق التي زارها. كما قام بتفقد المراكز الصناعية والعسكرية والمراكز الترفيهية والثقافية والحضارية في البلدان التي زارها، وتعرف على أشخاص جدد، وشاهد تقدم الغربيين وإنجازاتهم. واشترى الشاه ومرافقوه، خاصة أمين السلطان وعزيزخان، أشياء كثيرة وعادوا إلى البلاد بعد رحلة أنفقوا فيها أموالاً طائلة.

مذكرات هذه الرحلة حافلة بالإشارة إلى التباين والاختلاف الذي رآه ناصرالدين شاه سواء بالنسبة للأشخاص الذين ظهرت عليهم علائم الشيخوخة أو الذين أصبحوا أكثر بدانة، وكذلك بالنسبة لبقية الأشياء والأبنية التي تغيرت أو تهرأت وتآكلت. ويحاول أن يقارن بين هذه الرحلة والرحلتين السابقتين . ولا يتردد أحيانًا عن تصحيح الأخطاء التي وقع فيها في تخمينه للمسافات التي كان قد أشار إليها خطأ في مذكرات الرحلتين السابقتين.

في هذه الرحلة شاهد ناصرالدين شاه أكلة الشطيرة (الوجبات السريعة) لأول مرة فكتب يقول : «يوضع الخبز واللحم البارد وأشياء في أوراق ملفوفة، ويأخذ كل شخص واحدة منها مع عبوة زجاجية من العصير». كذلك شاهد لأول مرة المروحة الكهربائية. (فاطمة قاضيها ورضواني، ١٩٩٢ : ٢٣٠) . ومن أبرز الاشياء التي قام بشرائها، نسخة من القرآن كانت معروضة للبيع في معرض باريس، لأنه لم يكن يرغب في بقاء هذا الكتاب المقدس هناك، وأثناء تفقده برج إيفل لم يستخدم المصعد الكهربائي خلافًا لمرافقيه .. وفي هذه الرحلة التقى ناصرالدين شاه الحكيم (بولاك) طبيبه القديم . كما التقى أحد الأمراء الهنود ممن كان قد قرأ مذكرات السلطان ناصرالدين شاه القاجاري في بومباي. كذلك التقى خلال هذه الرحلة كثيرًا من الإيرانيين وأشار إليهم في مذكراته.

ولعل من أكثر معالم هذه الرحلة إثارة، الأحداث الخاصة ببعض الذين كانوا برفقة

الشاه أمثال عزيز السلطان، وعزيزخان، والفتاة الشركسية، وفخر الأطباء وآخرين، والتي كانت حديث المجالس في بلاد الإفرنج لفترة طويلة .

كانت هذه الرحلة بالنسبة لناصر الدين شاه حافلة بالسفر والسياحة وتفقد العديد من المراكز والأماكن، وقد أثيرت حول نفقاتها انتقادات كثيرة . ومما قيل بهذا الخصوص – على سبيل المثال – إن أموالاً طائلة أنفقت على شراء كماليات غير ضرورية، وتم شراء لعب الأطفال بالمتبقي من هذه الأموال، ثم عادوا إلى إيران. (قلي، ١٩٩٩ : ٦٩).

وخلال هذه الرحلة تمّ التفاهم مع الشرير الشهير (كرم)، الذي كان ينشط على الحدود بين إيران وروسيا، وضمه إلى الوفد والمجيء به إلى إيران، ومن ثم تخصيص راتب له وعودة الهدوء والأمن إلى هذه المناطق .. كذلك أسست بعد الرحلة مدارس في إيران على النمط الغربي، وشيدت مصانع مكعبات السكر والزجاج والبلور إلى غير ذلك، وافتتح الحاج على أكبرخان وأولاده مكتبًا تجاريًا في بريطانيا ، ويعتبر هذا أقدم مؤسسة تجارية إيرانية في الخارج. كما تم افتتاح سفارة بلجيكا في إيران والعمل على تطوير العلاقات مع هذه الدولة . كذلك يعتبر تأسيس شركات للنقل والتأمين وشق الطرق، والعمل على تشكيل القوات البحرية، من جملة الخطوات التي اتخذت بعد العودة من هذه الرحلة.

بيد أن المزايا والامتيازات التي منحت خلال هذه الرحلة تم إلغاء معظمها فيما بعد. منها امتياز تصنيع الخمور واليانصيب والتنباكو. بسبب إلغاء امتياز اليانصيب وبسبب النصب والاحتيال عُزل ملكم خان من المناصب الحكومية، وأصبح من معارضي الحكومة، حيث عمل بعد ذلك على إصدار صحيفة <القانون> التي راحت تنتقد أوضاع إيران. كما عُدّت معارضة فئات الشعب لامتياز التنباكو الخطوة الأولى في التصدي للاستبداد الداخلي والاستعمار الأجنبي، ونجاحها مهد الأرضية للثورة الدستورية.

وفي هذه الرحلة التقى ناصرالدين شاه السيدجمال الدين الأسدآبادي (الأفغاني) في

ميونخ، وبعثه الشاه ورئيس الوزراء في مهمة خاصة إلى روسيا. ولدى عودته إلى إيـران أُسيئت معاملته، فقرر الاعتكاف في مرقد السيد عبدالعظيم الحسني، فكان ذلك مـدعاة لاتهامه بالعمل ضد الملكية. فقرروا نفيه إلى خارج إيران في وضع مزر. غـير أن جمعيـة سرية ورجال أمثال الميرزا رضا كرماني نشطت في إيران بعد غيابه، وخططت لاغتيـال ناصرالدين شاه بسبب أفعاله . وهـذا الحـادث أيـضًا مهـد الأرضـية لانـدلاع الثـورة الدستورية (المشروطية). (صاحبي،١٩٩٦ : ١٨١. خوروش، ١٩٩٦:٣٢١).

القواسم المشتركة بين رحلات ناصرالدين شاه القاجاري إلى بلاد الإفرنج

١ – أعيدت طباعة مذكرات الرحلات الثلاثة التي قام بها ناصـرالدين شـاه مـرارًا داخل إيران وخارجها.

٢ – انطلقت الرحلات الثلاث من إيران واتجهت إلى أوروبا . كما حظيت كل رحلة باستقبال وتوديع حافلين وشهدت إهداء العديد من الأوسمـة والنياشـين، والإقامـة في القصور الملكية والفنادق الفاخرة .

٣ – أحيطت كل رحلة بالشائعات والحكايات التي أخذت تتردد على ألسن الناس حول الشاه ومرافقيه.

٤ – الأمر الذي لم يتم الاهتمام به في مذكرات هذه الرحلات، هو المحادثـات الـتي تخللتها . هذا في وقت خصـصت العديـد مـن الـصفحات لـشرح الحفـلات والمأدبـات وأشكال الحاضرين ومظاهرهم ولعبة جر الحبل للفتيات والسيرك والأوبرا.

٥ – لم تكن هناك ساعات محددة يتفرغ فيها الشاه لتدوين المـذكرات، وإنمـا كـان يلجأ للكتابة كلما سنحت له الفرصة.

٦ – اتسم نثر المذكرات بالبساطة والوضوح والسلاسة، مما ترك تأثيره على كتـاب البلاط آنذاك . وتكمن جمالية الملاحظات في أنها جاءت صريحة وشـفافة وبعيـدة عـن

الرياء والخداع، حتى أن الشاه أحيانًا كان يستخدم ألفاظًا نابية غير مقبولة في نظرنا اليوم، إلا أن استخدامها آنذاك لم يدعُ إلى الاشمئزاز . وبقراءة هذه الأجزاء الخمسة من المذكرات بما تضمنته من مفردات خاصة بالشاه، سنتعرف على المصطلحات الثقافية وخلفية شيوعها وتداولها في إيران . ومما يذكر فيهذا الصدد أن قدرة ناصرالدين شاه على الوصف في تسجيل الوقائع والأحداث كانت ملفتة بدرجة يستطيع القارئ أن يتصور نفسه معه فيالمكان الذي يصفه.

٧ – ناصرالدين شاه لم يغفل مطلقًا عن تسجيل الوقائع اليومية، غير أن المذكرات تتطرق عمومًا إلى سلسلة من الأحداث الاعتيادية والمتداولة، فتراه يتحدث دائمًا عن أحوال الطقس وعن نزول المطر والريح والإعصار، وتفتّح الأزهار البرية، ووصف الحيوانات كالنمر والخروف والأرنب، إضافة إلى ممارسة النقد البناء للمسؤولين الذين التقوا الشاه ورافقوه.

٨ – من خلال قراءة هذه المذكرات، يمكن التعرف على طباع الشاه وأخلاقه وطريقته في إدارة البلاد، والإحاطة بتفاصيل حياته الخاصة وحياة مرافقيه. ويُلاحظ أن أيًا من الأحداث التي حفلت بها هذه الرحلات، لم تخفِ شغف الشاه بالطعام والنساء والترفيه ... الخ . وإن اهتمامه بالنساء كان ملفتًا في هذه الرحلات .

٩ – مُنحت مزايا وامتيازات كثيرة للأجانب خلال هذه الرحلات وما بعدها، يمكن التعرف عليها لدى مراجعة المذكرات . وعلى أثر ذلك جاء إلى إيران المستشارون الأجانب، مما أدى إلى ترسيخ نفوذ الأجانب في بلادنا.

١٠ – لا يعرف ناصرالدين شاه معنى التعب والإرهاق في رحلاته الثلاث . فلم ينزعج مطلقًا من كثرة اللقاءات والمقابلات والحفلات وإلقاء الخطابات وقطع المسافات الطويلة.

١١ – لم يغفل ناصرالدين شاه في مذكراته الإشارة إلى الحالات والأوضاع التي تتعارض مع العادات والتقاليد الإيرانية، وكذلك عن الإشارة إلى الإنجازات التي حققها الأوروبيون، ويشير إلى كل ذلك في ذهول وتعجبٍ. والمعلومات التي يذكرها عن المراكز

العسكرية والعسكر والصناعة، توضح بأنه كان معجبًا بالأسلحة الأوروبية التي كانت متداولة في ذلك الوقت.

١٢ – حاول الشاه في هذه الرحلات الاهتمام بحياة الناس العاديين، ومثل هذا التوجه لم يكن يصدر عن الشاه في بلاده، فضلاً عن المخاطر الكامنة فيه بالنسبة له شخصيًا.

١٣ – الاهتمام بالنظافة والطهارة طوال الرحلات الثلاث على حد سواء واضح في حياة السلطان ناصرالدين شاه .

١٤ – المعلومات الجغرافية والعامة التي تقدمها المذكرات بشأن أوضاع الطرق والإعمار وحياة الحيوانات الوحشية تفوق الجوانب التاريخية .

١٥- أثارت هذه الرحلات استياءاً ملفتًا داخل إيران وخارجها، وشكّلت الآثار المترتبة عليه أحد عوامل اندلاع الثورة الدستورية في إيران .

وأخيرًا، بقي أن نشير إلى أن مذكرات عديدة كتبت بهذا الشأن نظير مذكرات أبوالحسن إيلجي التي تفوق كتابات الشاه، غير أن قدرة ناصرالدين شاه على تسجيل الأحداث وبيانها، تفوق قدرات العديد من رجال بلاطه أمثال اعتماد السلطنة الذي دوّن مذكراته من خلال وجوده في الرحلة الثالثة. ومما لاشك فيه تعتبرهذه المذكرات من المراجع الرئيسية والأصيلة بالنسبة لتاريخ تعرف الإيرانيين على الغرب.

نقاط التباين بين رحلات ناصرالدين شاه القاجاري الى بلاد الإفرنج

١- تتباين الرحلات الثلاث في دوافعها وتفاصيلها . فالرحلة الأولى استهدفت ـ في الأعم الأغلب ـ إشباع حب الاستطلاع . والرحلة الثانية استهدفت التعرف على حضارة الإفرنج، إذ لم تتوافر الفرصة في الرحلة الأولى لذلك بسبب تلبية الدعوات والمشاركة في المأدبات والحفلات والتشريفات، أما الرحلة الثالثة فإنها تعتبر حصيلة

العلاقات الطيبة بين إيران وأوروبا خاصة بريطانيا، وانطباعات الشاه إزاء رحلتيه السابقتين .

٢- جاءت الرحلات في فترات زمنية متباعدة وفي ثلاث سنوات مختلفة .

٣- مدة الرحلة، حيث استغرقت كل رحلة عدة أشهر عمومًا ولكن بأشكال متفاوتة.

٤- في الرحلة الأولى غادر الشاه إيران عن طريق ميناء أنزلي، أما في الرحلتين الأخريين فكانت الانطلاقة من تبريز.

٥- تختلف الرحلات في نوعية المرافقين وعددهم ووجود النساء ومرافقة الصدر الأعظم.

٦- كان للرحلتين الأولى والثالثة سمة رسمية . أما الرحلة الثانية فقد جاءت بصورة غير رسمية . إذ تمت الرحلتان الأولى والثالثة بناءاً على دعوة رسمية، غير أن الأمر يختلف بالنسبة للرحلة الثانية التي كان الشاه فيها ضيفًا أينما حل .

٧- المسيرالذي قطعته الرحلة الثانية وعدد الدول التي تم زيارتها كان دون الرحلتين الأخريين . إذ أن الشاه لم يزر بريطانيا والدولة العثمانية في هذه الرحلة . (موسوي، ٢٠٠٧ : ١٠٩- ١١٠) .

٨- كان من المفترض أن يزور الشاه المعرض الدولي أثناء الرحلات الثلاث . غير أن إيران لم تشارك في المعرض أثناء الرحلة الثالثة على عكس الرحلتين السابقتين.

٩- لم يكن لدى الشاه أثناء رحلته الأولى سوى فكرة أولية عن المظاهر الثقافية للحضارة الغربية، إلا أنه حاول في الرحلتين الثانية والثالثة تصحيح واستكمال مشاهداته ومسموعاته السابقة.

وطريقة تفكير الشاه كانت مختلفة خلال هذه الرحلات . في الرحلة الأولى كان يفكر بالاستعانة بالحضارة الغربية وجلب الإصلاحات والانجازات التي حققتها بلاد الإفرنج، والشيء نفسه ينطبق على الرحلة الثانية. ولأنه صادف محاولة اغتيال امبراطور ألمانيا، حاول لدى عودته إلى إيران الحد من استبداده والمبادرة إلى بعض الاصلاحات .. غير

أن ناصر الدين شاه وبعد رحلته الثالثة وفي السنوات الأخيرة من حكمه، أدار ظهره بالكامل لفكرة الإصلاحات.

١٠- حفلت كل رحلة من الرحلات الثلاث بأحداث خاصة بها. نظير الحدث الذي شهدته الرحلة الثانية وهو محاولة الاغتيال التي تعرض لها امبراطور ألمانيا.

١١- إن الأموال التي أنفقت على الرحلة الثالثة والمزايا والامتيازات التي منحت للأجانب وتداعياتها على صعيد الداخل، أثارت استياءاً وغضبًا عارمًا على نطاق واسع.

١٢- كان شوق الناس إلى بلاد الإفرنج ورغبتهم في رؤية الشاه كبيرًا في الرحلة الأولى، غير أن الرحلة الثالثة لم تشهد مثل هذا الشوق والرغبة، لأن الإفرنج بدأوا يشاهدون الشخصية الشرقية كثيرًا.

١٣- تباين أوضاع إيران أثناء هذه الرحلات . فالرحلة الأولى شهدت الاحتجاج على منح «رويتر» الامتياز. وفي الرحلة الثانية كانت أحداث مقتل الجنود وأصداؤها في الداخل والخارج . وفي الرحلة الثالثة برزت بوضوح معاناة الناس وهمومهم من خلال العرائض التي كانوا يقدمونها باستمرار إلى الشاه .

١٤- ثمة تباين في حجم المذكرات أيضًا. فمذكرات كل من الرحلة الأولى والثانية كانت كتابًا واحدًا، بينما كانت مذكرات الرحلة الثالثة في ثلاثة أجزاء، حتى أن محتويات الجزء الثالث تفوق كل من مذكرات الرحلة الأولى والثانية التي كتبت معظمها بيد الشاه. أما مذكرات الرحلة الثالثة فقد تم تحريرها من قبل محررين مختلفين متباينين من حيث الثقافة والمعرفة . (رضواني وقاضيها، ١٩٩٤: ١٧).

١٥- انطباعات الرحلة الثالثة إزاء بعض الأشياء جاءت مختلفة عما كانت عليه في الرحلتين السابقتين . حيث كلف شخص يدعى أحمد خان بجمع النصوص الخطية والأشعار والرسائل والصور والبرقيات الخاصة بهذه الرحلة وعرضها على الشاه. وقد فعل ذلك إذ قدمه إلى السلطان ناصرالدين شاه في مجلدين .

يمكن القول أن مذكرات السلطان ناصرالدين شاه تعتبر اليوم بمثابة إحدى وثائق ومستندات العهد القاجاري، وهي موضع اهتمام الباحثين والدارسين.

النتيجة

يبدو في الظاهر أن من الآثار الإيجابية المترتبة على رحلات ناصرالدين شاه إلى بلاد الإفرنج، بغض النظر عن الأموال الطائلة التي أُنفقت على هذه الرحلات، جلب مظاهر حضارة الإفرنج إلى إيران . وبشكل عام لابد من الإذعان إلى أن إصلاحات الشاه لم تكن ناجعة في الكثير من المجالات، بل أدت إلى منح الأجانب المزايا والامتيازات، ومضاعفة قروض إيران وديونها، إضافة إلى تنامي نفوذ الأجانب في بلادنا . ومما يذكر في هذا الصدد أن الشاه نفسه كان مستاءاً من تدخل الروس والبريطانيين في شؤون البلاد. من جهة أخرى فإن ممارسات الشاه نفسه أدت إلى فشل مساعيه في محاولة تقليد الغرب في العديد من المجالات منها:

عدم السماح بحرية الصحافة وحرية التعبير، وعدم احترام القانون الذي يعتبر نسخة أخرى للقانون العثماني، ومحاربة المفكرين وملاحقة المثقفين، وعدم السماح بإيفاد الإيرانيين للدراسة في الخارج، إضافة إلى منع نشاط الجمعيات والاتحادات المهنية، والتخلي عن دعم الصناعات المحلية، وعدم الاهتمام بتحسين أوضاع الأقليات الدينية، إلى غير ذلك . حتى أن محاولاته في مجال الإصلاحات كانت دون الدول الآسيوية المشابهة الأخرى .. ربما لم يكن يؤمن في قرارة نفسه بمثل هذه الأمور ولا يرغب فيها. وكان قلقًا من تدخل رجال الدين ومعارضتهم لانتشار مظاهر الحضارة الغربية في إيران، وبالتالي تحجيم سلطاته وتهديد أركان حكومته. كما أن الشاه كان يفتقر إلى روحية الثقة بالنفس، وكان يشكو دائمًا من قحط الرجال في إيران . كل هذه العوامل إضافة إلى استشراء الفساد والارتشاء، كلّها عوامل اجتمعت وجعلت الشاه يعارض التصنيع ويتخلّى تمامًا عن فكرة الإصلاحات في السنوات الأخيرة من حكمه.

علي صعيد آخر، العوائد التي كانت تحصل عليها البلاد من تصدير القطن والحرير والأفيون قد تدنت إلى حد كبير، مما جعل الحكومة تعتمد كليًا على الرسوم الجمركية.

وهكذا وحتى نهاية حكم ناصرالدين شاه، لم تنفذ أية واحدة من الإنجازات الإفرنجية التي تحدث عنها بدقة متناهية وزير الشاه لشؤون الصحافة والمطبوعات محمد

حسن خان اعتماد السلطنة في كتابه الذي حمل عنوان *مآثر الآثار*. وبقيت المصابيح الكهربائية والغازية والعربة الملكية التي تجرها الخيول ليست أكثر من وسائل ترفيه ملكية. ولو فكر في ترجمة أحد المشاريع التي كان يطمح إليها على أرض الواقع، لآل مصيره إلى ما آل اليه مصنع «سكر المكعبات» الذي لم يتوفر له الدعم فعجز عن مجاراة المنافسة الأجنبية وغلق أبوابه.

وخلال ثورة التبغ (التنباكو) أدرك الناس مدى قوتهم ودورهم . واعتلى مظفر الدين شاه المريض العرش بعد وفاة والده. وقامت الصحافة في خارج إيران بتوعية الجماهير . وساعد التواصل الفكري بين المجتمع الإيراني وما يجري في الغرب في دفع الجماهير لنيل حقوقها . وفي ظل هذا الوعي اندلعت الثورة الدستورية ضدالعصر الناصري (عصر ناصر الدين شاه). ولكن، وكما اتضح من قبل، لم تكن محاولات السلطان ناصرالدين شاه تنشر سوى ظاهر الحضارة الغربية، لذا لم تتمكن من النفوذ إلى أعماق المجتمع الإيراني، وبالتالي عجزت عن التأثير وعن ترك بصماتها في المجتمع.

المصادر

١- اعتماد السلطنة، محمدحسن خان . (٢٠٠٠)، المذكرات اليومية لاعتماد السلطنة (١٢٩٢ – ١٩٣٤)، تقديم ايرج افشار، طهران، منشورات امير كبير، الطبعة الخامسة .

٢- افراسيابي، بهرام . (١٩٩٥)، الشاه ذوالقرنين ومذكرات مليجك، منشورات سخن، الطبعة السابعة.

٣- امين الدولة، علي اصغرخان . (١٣٥٥)، المذكرات السياسية لأمين الدولة، إعداد حافظ فرمانفرماييان ، طهران (منشورات امير كبير)

٤- آدميت، فريدون . (١٩٧٢)، فكر الرقي وحكومة القانون في عصر سپهسالار،طهران، منشورات الخوارزمي، الطبعة الأولى .

٥- بزرك أميد، ابوالحسن (١٩٨٤)، منا وعلينا، طهران منشورات عالم الكتاب، الطبعة الثانية .

٦- بياني، خان بابا (١٩٩٦)، ٥٠ عامًا من تاريخ إيران في العهد الناصري، مراجعة سعيد قانعي، الطبعة الأولى.

٧- تيموري، ابراهيم (١٩٩٤)، عصر الجهل أم تاريخ الامتيازات في إيران، طهران، دار نشر اقبال.

٨- حكيمي، محمود (٢٠٠٠)، إيران فيعهد ناصرالدين شاه، طهران، منشورات قلم، الطبعة الأولى .

٩- خاتمي، محمد (بدون تاريخ)، ارضية الثورة الدستورية٠(المشروطية) في إيران، طهران، منشورات مؤسسه پايا الثقافية، الطبعة الأول .

١٠- خوروش، حسين عبداللهي (١٩٧٩)، سيد جمال الدين في المنظمات الماسونية، منشورات المؤسسة الاسلامية، الطبعة الأولى .

١١- رايت، دنيس (١٩٨٣)، إيران في أوساط البريطانيين (صفحات من العلاقات الإيرانية – البريطانية)، ترجمه كريم إمامي، طهران، منشورات نو بالتعاون مع منشورات زمنيه، ج ٢، الطبعة الثانية .

١٢- رضواني، محمد إسماعيل . قاضيها، فاطمة (١٩٩٢)، المذكرات اليومية لناصرالدين شاه في رحلته الثالثة إلى بلاد الإفرنج (الكتاب الأول)، طهران، منشورات منظمة الوثائق الوطنية الإيرانية .

١٣- رضواني، محمد إسماعيل . قاضيها . فاطمة (١٩٩٤)، المذكرات اليومية لناصرالدين شاه في رحلته الثالثة إلى بلاد الإفرنج (الكتاب الثاني)، طهران، منشورات منظمة الوثائق الوطنية الإيرانية .

١٤- رضواني، محمد اسماعيل . قاضيها، فاطمة (١٩٩٩) المذكرات اليومية لناصرالدين شاه في رحلته الثالثة إلى بلاد الإفرنج (الكتاب الثالث)، طهران، منظمة الوثائق الوطنية الإيرانية .

١٥- صاحبي،محمدجواد (١٩٩٦) سيد جمال الدين الأسدآبادي(مؤسس نهضة احياء الفكر الديني)، طهران، منشورات الفكر المعاصر، الطبعة الأولى .

١٦- قاضيها . فاطمة (٢٠٠٠) المذكرات اليومية لناصرالدين شاه في رحلته الثالثة إلى بلاد الإفرنج، طهران، منظمة الوثائق الوطنية الإيرانية .

١٧- قلي، على رضا . (١٩٩٩)، تصفية النخبة من وجهة نظر علم الاجتماع والتحليل الاجتماعي لبعض الجذور التاريخية للاستبداد والتخلف في إيران، طهران، منشورات ني، الطبعة ١٦.

١٨- كار لاسرنا، (١٩٨٤)، الناس والسياحة في إيران (مذكرات)، ترجمة غلام رضا سميعي، طهران ، منشورات نو.

١٩- مشايخي، عبدالكريم (٢٠٠٦)، الميرزا حسين خان سپهسالار، طهران، منشورات مركز ابحاث الثقافة والفكر الاسلامي، الطبعة الأولى .

٢٠- موسوي، على (٢٠٠٦)، ناصرالدين شاه والسفر إلى بلاد الإفرنج، طهران، منشورات شاليزار، الطبعة الأولى .

٢١- ناصرالدين شاه (١٩٦٤)، رحلة ناصرالدين شاه القاجاري إلى بلاد الإفرنج، طهران، منشورات انديشه.

٢٢- نصر، تقي. (١٩٨٤)، إيران في تعاملها مع المستعمرين منذ القاجار وحتى المشروطية، طهران، منشورات شركة المؤلفين والمترجمين الإيرانية، الطبعة الأولى.

٢٣- ورهرام، غلام رضا، ٢٠٠٦، النظام السياسي والمنظمات الاجتماعية الإيرانية في العصر القاجاري، منشورات معين، الطبعة الأولى .

٢٤- ولايتي، على اكبر (١٩٩٦)، تاريخ العلاقات الخارجية الإيرانية في عهد ناصرالدين شاه ومظفرالدين شاه، طهران، وزارة الخارجية، الطبعة الثانية.

ويلز، (١٩٨٩)، إيران في القرن الماضي . ترجمه غلام حسين قره گوزلو، منشورات اقبال، الطبعة الأولى.